المشكلة الأساسية: كانت المشكلة الأساسية فى الفلسفة التقليدية أو الكلاسيكية هى دائما: بماذا تتعلق التجربة البشرية بأسرها؟ هذا السؤال، إذا ما فهمت دلالته الكاملة، لاتضح أنه يلخص (أو يتضمن على الأقل) معظم المشكلات والمسائل الأخرى التى تعالجها الفلسفة. فالفيلسوف المحترف يسأل هذا السؤال دائما فى صورة مجردة ما، مثل: ما طبيعة الحقيقة النهائية؟ أما غير المتخصصين فهم أقرب إلى أن يصوغوا هذا السؤال بطريقة مثل: ما معنى الحياة والكون؟ وبينما هذا السؤال الأخير يقتضى إجابة مختلفة إلى حد ما، فإنه بدوره يشير إلى نفس المشكلة الرئيسية. وأيا كانت طريقة صياغته، فانه هو السؤال الأساسى الذى يبنى حوله أى مذهب فى الفلسفة. ويمكن القول إن كل شخص قد تساءل هذا السؤال، بصورة ما، فى وقت معين من حياته، بغض النظر عن ذكائه، أو مدى ثقافته، أو عدم إكتراثه الظاهرى بالتأمل الميتافيزيقى.

مشكلة علاقة الإنسان بالكون: وهناك مشكلة أخرى يتعين على الفلسفة مواجهتها، وهى متولدة عن تلك التى عرضناها منذ قليل. هذه المشكلة خاصة بالعلاقة بين الانسان وبقية الكون. وهناك من المفكرين من يعتقدون أن هذا أهم سؤال نستطيع أن نتساءله؛ إذ أنه رغم أنه قد يكون أضيق نطاقا من البحث الأول الشامل فى طبيعة الواقع، فانه أوثق اتصالا بتجربتنا اليومية؛ ذلك لأن هذا السؤال الخاص بالعلاقة بيننا وبين بيئتنا قد يكون أهم بالنسبة إلى سعادتنا ورفاهنا من أى سؤال غيره.

ولقد كان الناس فى العصور الوسطى يعتقدون أن الكون (بقدر ما كان معروفا فى ذلك الحين) لم يخلق إلا ليكون تابعا لكوكبنا، الذى هو بدوره موجود بوصفه مسرحا تمثل عليه دراما الخلاص الكبرى. وبطبيعة الحال كان لهذه النظرية الكونية المتمركزة حول الأرض، تأثير مباشر فى تلك النظرة إلى الأشياء، المتمركزة حول الانسان. وقد اتضح ذلك عندما تقدم كوبرنيق لأول مرة بنظامه الفلكى معارضا به هذه النظرة القديمة. فقد كانت الحجة الأخلاقية الكبرى ضد النظرة الجديدة «المهرطقة» هو أنها حطت من قدر الإنسان لأنها أزاحته من مكانته المركزية فى الكون، بحيث لم يعد يبدو هو الشخصية الرئيسية فى المسرحية الكونية الكبرى. وبينما أى رأى كهذا فى علاقة الإنسان بالكون يبدو فى نظر العلم الحديث ممتنعا وذاتيا مفرطا، فما زالت هناك من الاختلافات فى الرأى حول التحديد الدقيق لطبيعة هذه العلاقة ما يكفى لشغل أوقات الفلاسفة فى عمل لا يتوقف.

❀ ❀ ❀

إن الإنسان مشكلة ، لأنه الموجود الذي لا وصف له سوى أنه لا يوصف ! إنه الموجود الذى يفلت من كل تحديد ، ويخرج على كل قاعدة ، وينذ عن كل تعريف ، إنه الموجود الذى لا يفتأ يعيد النظر فى كل شيء ، ولا يكاد ينتهى حتى يبدأ من جديد ، ولا يمس شيئاً دون أن يغيره ويحول منه !

إنه مشكلة لأنه « الموجود المتناقض » الذى حار فى وصفه الفلاسفة ، فقالوا فى تعريفه إنه حيوان ناطق ، أو حيوان صانع ، أو حيوان مدنى ، أو حيوان متدين ، أو حيوان ميتافيزيقى ، أو حيوان إلهى ، أو حيوان مريض ، أو حيوان ضاحك ... إلخ . وشاء قوم منهم أن يرسموا له صورة قاتمة ، فقالوا إنه « ذئب لأخيه الإنسان » ، أو إنه حيوان مفترس ، أو أنه « الحيوان الوحيد الذى يحدث للآخرين آلاما لا لغاية إلا لهذا الإيلام بعينه » ، أو إنه ذرة تافهة تائهة فى أرجاء كون هائل صامت ، أو إنه نزوة لا طائل تحتها ، أو إنه فى قلب الحياة كالضلال الأكبر ، والمرض العضال ، والمأزق الذى بلغته الحياة فى سبيل تطورها ! ويمضى بعض الوجوديين إلى حد أبعد من ذلك فى تصوير « عبث » الموجود البشرى فيقول زعيمهم سارتر : « إن الإنسان هو الموجود الذى يشعر بأنه قد وجد جزافاً ، أعنى أنه يدرك ذاته بوصفه عبثاً لا طائل تحته ، ويعرف دائما أنه زائد عن الحاجة : « de trop » !(١) .

ويفتح المرء كتب رجال الدين وآباء الكنيسة ، وبسكال ، وبوسويه ، وماسيون ، وغيرهم من الناطقين باسم التقليد المسيحى ، فيجد أن الإنسان فى نظر هؤلاء جميعاً مخلوق وضيع لا يملك أية طهارة ، ولا يتمتع بأية فضيلة ، ولا تنطوى نفسه على أية براءة ! إنه عند أصحاب « نظرية الخطيئة الأولى » مخلوط ساقط بهيمى تعميه شهوته الدنيئة ، بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم ، أو لولا احترامه لسلطة المجتمع ، لأقدم على ارتكاب أدنى الموبقات ، ولما تورع عن إتيان أحط الجرائم ! .

ولكن بينما يلح التشاؤم المسيحى على ما فى الإنسان من رجس ودنس ، بوصفه جسداً شقياً ينزع نحو الأهواء والشهوات . نجد أن الأخلاقيين والفرنسيين من أمثال لاروشيفوكو ، ولافونتين ، وسان سيمون ، وشامفور ، وموباسان وغيرهم يبالغون فى تصوير ما ينطوى عليه سلوك البشر من تفاهة ودناءة ورياء ، فيشبهون قلب الإنسان بجهاز آلى مبتذل يحركه ترس واحد ، ألا وهو المنفعة !

---

(1) J. P. Sartre "L'Etre et le Néant", Paris, Gallimard, 1943, p. 126.